

محاضرات في العربية

العامّة

إعداد

م.د رابعة حسين مهدي الحمداني

المحاضرة الثالثة

النثر الجاهلي

تمهيد

وهو النثر الذي عُنِيَ النقاد ببحثه ودراسته بوصفه أدبا يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء.

وإذ اقتصرَت الكتابة على الأغراض السياسية والتجارية، لصعوبة الحصول على أدواتها، فقد كان النثر الجاهلي موضوع خلاف شديد بين العلماء من مستشرقين وعرب، فذهب (جيب) إلى إنكار هذا النثر، وحثه «أن النثر الفني، لغة العقل والتفكير، لا يظهر إلا في أمة تبلغ درجة عالية من المدنية والحضارة خلاف الشعر، لغة العاطفة والخيال، فإنه يرافق الإنسان منذ طفولته الاجتماعية».

ويرى كارلو نالينو «أن العرب في الجاهلية لم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطعات» وأجمع علماء العرب على أن الجاهليين كانوا يجيدون النثر الأدبي، وآية ذلك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين وأنه تحدى العرب في أن يأتوا بمثله أو بعضه. ومن ثم كان لهم هذا النثر الذي وصل إلينا القليل

منه لصعوبة روايته في حين لقي الشعر انتشاراً أكثر من النثر، وكان أوفر حظاً من العناية والاهتمام، وهو بالقياس إلى النثر أكثر ما يصلى إلينا من الأدب الجاهلي، قال ابن رشيق: "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة". وقد يكون المقصود بالنثر ههنا ما كان يستعمله الناس في حياتهم اليومية، ذلك أن النثر الفني كان أقل مادة، لحاجته إلى التفكير والروية، فضلاً عن حاجته إلى وسائل التدوين وعمادها الكتابة حتى يتسنى حفظه من الضياع، في حين كان الشعر أسهل حفظاً.

ويمكن تقسيم النثر الجاهلي إلى عدة أنواع، وهي:

١. الخطابة.

٢. الأمثال والحكم.

٣. سجع الكهان.

٤. الوصايا.

٥. القصص.

الخطابة

تُعد الخطابة من فنون النثر الشفاهي، وقد عرفت منذ العصر الجاهلي إذ استعملها العرب في عرض قضاياهم، أو في الرد على خصومهم، أو لإقناع الآخر لاستمالته. ومن ثم فهي وسيلة إقناع وإمتاع، والأصل في تذوقها أن تتلقاها الأذن لحظة إلقائها، وخصوصاً في العصر الجاهلي الذي طغت فيه الأمية على الناس.

وعناصرها الاتصالية، هي:

١. المرسل (الخطيب).

٢. الرسالة (الخطبة).

٣. المرسل إليه (المستمعون).

٤. قنوات الاتصال (الأذن والعين).

كان للخطابة في العصر الجاهلي مكانة مرموقة، عند العرب، إذ تلت الشعر في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم. وتوافرت لها أسباب الازدهار، فقد امتلكوا ناصية البيان وصلابة اللسان وحضور البديهة، وتهيأت لها الظروف إذ كثرت المنازعات والخصومات بينهم، فكانت مجالاً لمنافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب.

وتعددت مواقف الباحثين من الخطابة الجاهلية، فقد أنكر طه حسين إزدهارها، إذ يقول: لا أنكر أنه قد كان للعرب قبل الإسلام خطباء، ولكنني لا أتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء، وإنما الخطابة العربية فن إسلامي خالص. : ورأى شوقي ضيف أن الخطابة الجاهلية كانت مزدهرة، وأن منزلة الخطيب كانت فوق منزلة الشاعر، واستند إلى أقوال القدماء أمثال أبي عمرو بن العلاء والجاحظ، اللذين اتفقا على أن الشاعر كان أرفع قدراً من الخطيب، فلما كثر الشعر والشعراء وانحرفوا عن رسالة الشعر صار الخطيب عندهم فوق الشاعر وأعظم قدراً منه، وذلك بوصفه صوت العقل الذي ارتبط بمواقف التفاوض والمشاورة والوفادة، على حين ظل الشاعر صوت الوجدان للقبيلة.

ورد غازي طليمات على ذلك، فوجد في رأي شوقي ضيف غلواً، واستنبط من أقوال القدماء تفسيراً آخر خلاصته أن الشعر كان أشيع من الخطابة وأنجح.

والحق أن الشعر كان أكثر ازدهاراً، وأن الشعراء كانوا أكثر عدداً، وقد يكون الشاعر خطيباً، من أمثال عامر بن الطفيل وعمرو بن كلثوم، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي. في حين نجد الخطباء عامة لم يبرعوا في الشعر أمثال عامر بن الظرب العدواني، وقس بن ساعدة الإيادي وهاني بن قبيصة الشيباني، وهاشم بن عبد مناف.

وكثيراً ما يذهب كلام الخطيب ويبقى كلام الشاعر، لصعوبة حفظ النثر وسهولة حفظ الشعر وروايته، فضلاً عن أن العرب في الإجمال كانوا أميين لا يعرفون التدوين ولم تتوافر لهم أدواته إلا في نطاق محدود. ولعل في خبر المنافرة بين عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة دليلاً على أن الشعر كان أعلى مقاماً من الخطابة؛ فمعلقة ابن كلثوم ذاعت على ألسنة بني تغلب جيلاً بعد جيل، في حين اتسمت معلقة الحارث بالمنطق وحسن العرض والقدرة على الإقناع.

أنواع الخطابة

توافرت في العصر الجاهلي أنواع من الخطب، اختلفت باختلاف متطلباتها، كالمنازعات القبلية، والوفود على الملوك والأمراء، وتوجيه النصيح والإرشاد، وبث الحمية في المتحاربين، والتعبير عن التواصل الإنساني، وأشهر أنواعها:

١ - خطب المنافرة

المنافرة هي أن يفخر رجل على رجل أو قبيلة على قبيلة، بحضور حكم يحكم بينهما، حيث يذكر كل خطيب مفاخره أو مفاخر قبيلته، كمنافرة علقمة بن غلثة وعامر بن الطفيل، وتعد من أشهر منافراتهم، لكثرة من اشترك فيها من الشعراء الحكام. وبدأت في حوار عنيف بين عامر وعلقمة:

-قال عامر: والله لأنا أكرم منك حسباً وأثبت منك نسباً، وأطول منك قصباً.

-قال علقمة: والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً.

-قال عامر: والله لأنا أحب إلى نساءك أن أصبح فيهن منك.

-قال علقمة: أنافرك أني لير وأنك لفاجر، وأنى لولود وأنك لعافر،

وأنى لعف وأنك لعاهر، وأنى لواف وأنك لغادر.

وقد حكم هذه المنافرة هرم بن قطبة الغزاري وقد رآه عمر بن الخطاب يوماً المسجد، فقال له: «أرأيت لو تنافرا إليك -يعني علقمة وعامراً- أيهما كنت تنفر؟ فقال: يا أمير المؤمنين لو قلت فيها كلمة لا اعتدتها جذعة، فقال عمر: لهذا العقل جاكمت إليك العرب»

وقد يعقب المنافرة خطبة يلخص فيها الحاكم رأيه، كقول نفيل بن عبد العزى حين تنافر إليه عبد المطلب بن هاشم جد النبي وحرب بن أمية، فنسمعه يخاطب حرباً: يا أبا عمرو! أتنافر رخلأ هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم تنك وسامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدأ، وأجزل صفدا"، وأطول منك مذودأ؟. ومن المنافرات المشهورة منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابش. ويلاحظ أن أكثر منافراتهم مسجوعة

٢- خطب الوعظ

وتدور حول مشكلة الموت والمعاناة من الضياع، وتعد خطبة قس بن ساعدة أشهر خطب الوعظ وقد ألقاها في سوق عكاظ، حيث رآه النبي (ص) على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس، اجتمعوا، واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ومن أشهر الخطباء الوعاظ المأمون الحارثي الذي خطب في قومه.

٣- خطب الوفادة

وكانت شائعة بينهم حين يفدون على الأمراء والسادة، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة، فيجيبه متحدثاً بلسان قومه. وأشهرها خطبة أكثم ابن صيفي بين يدي كسرى، ومنها قوله: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهوأة، والشر لجابة. والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطى، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر ...

وهي خطبة كما ترى حافلة بالحكم والأمثال المتناثرة، وأنها قصيرة الجمل خالية من المبالغة والتزويق، وفيها بعض السجع، وافكارها مفككة تخلو من وحدة الموضوع ومن التقسيم المنطقي الذي يقوم على نمو الأفكار وتصاعدها.

٤ - خطب الحرب

وتدور حول إثارة الحمية، والدعوة إلى النزال والصبر على القتال. ومن أشهرها خطبة هاني بن قبيصة الشيباني، إذ يحرض قومه يوم ذي قار بين العرب والفرس، وفيها انتصر العرب على الفرس: وقد قال فيها: «يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد».

وهذا فضلاً عن خطب الزواج (الإملاك)، وخطب إصلاح ذات البين،

وخطب التعزية والتهنئة.

ومن أمثلة خطب الزواج في الجاهلية، الخطبة التي ألقاها أبو طالب في زواج الرسول (ص) بالسيدة خديجة بنت خويلد، إذ يقول: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قریش إلا رجح عليه، براً وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونبلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بن خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي».